المنار الجديد

مقالات وأبحاث في فلسفة الدين وشئون الاجتماع والعمران

مواقف الإسلاميين من الثورة المصرية — جمال سلطان

الحركات والاتجاهات الإسلامية الخليجية — علاء النادي

الإسلاميون بين الدعوة والدولة — د.طه جابر العلواني

التعايش العالمي وآلياته — د.عمرو خالد

الخطاب السياسي الإسلامي — سمير العركي

الحرب العالمية على الإرهاب — د.محمد عبد الله السلومي

المديح النبوي في الشعر التركي — د.نور الله تشتين

الإسلام بين الحضور المهمش والتغييب المتعمد — د.إبراهيم أبو محمد

التدرج في بناء المجتمع النبوي بالمدينة — د.رشيد كهوس

المجتمع بين قدسية المنهج وقدسية الذات — عبد القادر وحيد

مراقبة الله ودورها في البناء الحضاري — محمد الغباشي

محمد الغزالي وحديثه عن الثورات — وصفي أبو زيد

أوقات الأولين — المنشاوي الورداني

قراءة في كتاب "أوراق تلمسانية" — سعد بوفلاقة

٥٥-٥٦
خريف
٢٠١١

السنة الرابعة عشر ذوالقعدة ١٤٣٢ هـ - أكتوبر ٢٠١١ م

مقالات

التدرج في بناء المجتمع الإسلامي بالمدينة المنورة

أ.د/ رشيد كهوس*

كانت الدعوة في بدايتها سرية، ثم انتقلت من مرحلة السر إلى الجهر، ثم بعد ذلك انتقلت إلى مرحلة الدعوة خارج المدينة في ثقيف والحبشة، ثم انتقلت إلى مرحلة أكبر وهي الهجرة إلى المدينة لبناء كيان يحمي الأمة من الأخطار التي تعرقل سيرها. وهكذا يمكن اعتبار الهجرة إلى المدينة المنورة من أهم متطلبات الدعوة إلى دين الإسلام، وهي سنة الله في رسله وأنبيائه وعباده المؤمنين، الذين هاجروا فرارا بدينهم وخوفا من بطش الظالمين (١).

* باحث مغربي.

ولذلك أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بيعة العقبة الثانية يحرض أصحابه على الهجرة إلى المدينة، وأهل المدينة من الأوس والخزرج يمهدون لهم الطريق بدعوتهم لأهل يثرب إلى الإسلام، وبنشرهم للرسالة المحمدية بين أهليهم وإخوانهم حتى صاروا عددا كبيرا لا يستهان به، وصاروا هم أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحوارييه كحواريي عيسى بن مريم عليه السلام.

ومما لا ريب فيه أن الهجرة إلى المدينة كانت ترتيبا للدعوة الإسلامية، وخروجا من بلد لا قوة فيه للإسلام فيه إلى بلد يكون للإسلام فيه قوة ودولة، فما كان من المعقول أن ينفذ النبي صلى الله عليه وسلم مبادئ الإسلام في مكة، وهي في ظل الوثنية، ويحكمها مشركون، فالزكاة لا يمكن جمعها إلا في ظل سلطان عادل يجمعها من الأغنياء، ويردها على الفقراء، وتنفيذ مبادئ المساواة والإخاء، ودعوة المسلمين إلى التراحم ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم، وما كان يمكن أن يقيم الحدود الزاجرة لبناء دولة فاضلة، ولا القصاص العادل، ولا لينظم المعاملات بين الناس على أساس من الرضا والعدل، وما كان ليحارب الربا الجاهلي، وما كان يمكن شيء من ذلك إلا في ظل المجتمع الإسلامي الجديد، وما كان يمكنه صلى الله عليه وسلم أن يقيم رأيا عاما فاضلا، يقوم المنحرف، ويرشد المسترشد، ويكافئ المحسن إلا في ظل دولة إسلامية، وعلى ذلك كانت أمرا مقررا، ولابد منه لتقام دعائم الإسلام، ولتثبت أركانه، وتعم في الوجود الإنساني دعوته، وليست الهجرة بسبب حادث وقع، أو خوف متوقع (٢).

وهذا هو السبب الرئيس للهجرة المحمدية إلى المدينة، عكس ما ظنه كثير من كتاب السيرة والدارسين لها من أن سببها ما كانت تخططه له قريش في عتمة الليل من محاولة اغتيال للنبي صلى الله عليه وسلم(٣)، فالهجرة أمر مقرر وقضاء إلهي، وسنة من سنن الله في الدعوات، وهذا ما أدركه النبي صلى الله عليه وسلم في أول يوم أوحي إليه، لما ذهبت به زوجه أم المؤمنين خديجة بنت خويلد عليها سلام الله ورضوانه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فقال له ورقة: « يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا أَكُونُ حَيًّا، حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: {أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ} . فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ»(٤).وذلك ما نلاحظه في كثير من الآيات، حيث ما ذكر الجهاد إلا وذكرت معه الهجرة، قال الحق سبحانه وتعالى:(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)(سورة التوبة:٢٠)، والآيات في الباب كثيرة، وعَنْ مُعَاوِيَةَ { قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ}: لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا} (٥).

ولذلك كانت الهجرة إلى المدينة النصر الأول للنبي صلى الله عليه وسلم، قال الحق جل ذكره: (إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(سورة التوبة:٤٠)، كيف لا تكون الهجرة نصرا وقد نتج عنها فتح عظيم، هو ذلك المجتمع الأخوي الذي أقيم مباشرة بعد الهجرة، وما تلاه من فتوحات كثيرة للقلوب والبلدان.

إنه نصر ويسر بعد عسر دام ثلاث عشرة سنة في مكة، وهنا تحققت سنة الله تعالى والوعد الإلهي القرآني، الوارد في قوله جل وعلا:(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)(سورة الشرح:٥-٦). وهنا نستطيع أن نقرر أن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له، وقد تنادى المسلمون من كل مكان: هلموا إلى يثرب! فلم تكن الهجرة تخلصا فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاونا عاما على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن.

أصبح فرضا على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة -بعد الهجرة إليها- نكوصا عن تكاليف الحق، وعن نصر الله ورسوله فالحياة بها دين، لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها (٦).

خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا، وهي أحب بلاد الله إليه؛ لأن بها الكعبة البيت الحرام، ولأنها مهبط الوحي، ولأن بها العشيرة وذوي القربى، ولأن بها مآثر إبراهيم عليه السلام، ولكنه انتقل مع كل هذا إلى المدينة، وما كان ذلك إلا لأنه بأمر ربه أنشأ دولة، ولأنه ما جاء لرهبانية أو روحانية مجردة، أو لتهذيب النفوس فقط، بل بعث رحمة للعالمين، ولابد من أن تقوم دولة تقيم الحق، وتخفض الباطل، وتمنع الظلم، وتجمع الإنسانية، وتنشر التعاون بين الناس، وتمحو كل الفروق التي تجعل بعض بني الإنسان يتحكم في الآخر، وتمنع الفساد في الأرض (٧).

ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة لبناء المجتمع الإسلامي الأخوي يقوم على الأخوة والإيثار وصلة الأرحام والتعاون على البر والتقوى، وتأسيس دولة تحفظ هذا الكيان وتسوس أموره وتخدم الدعوة الإسلامية وتيسر سبلها.

ومن ثم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يغفل سنن الله في رقي المجتمعات؛ ولذلك فإن أول عمل قام به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى المدينة المنورة بناء المجتمع العمراني الأخوي ودولته

الإسلامية -بعد بناء الإنسان في مكة- على دعائم أربع:- بعد الإيمان بالله ورسوله-

١-بناء المسجد روح الإسلام وعاصمته،
٢-ثم الصحيفة التي تم بموجبها تنظيم المجتمع الإسلامي داخليا مع جميع طوائفه، وخارجيا في حماية هذا المجتمع من كل اعتداء،
٣-ثم الإخاء بين المهاجرين والأنصار،
٤-ثم تشكيل الجيش الإسلامي لحماية الدعوة وما تم اكتسابه، وتحقيق أهدافه الأخوية الدعوية المنشودة.

وبمعنى آخر فإن الإسلام دين ودولة؛ والإسلام عقيدة إلهية تنبثق منها شريعة، يقوم على مبادئ هذه الشريعة نظام اجتماعي كامل وفاضل، يحقق سعادة البشر جميعا في الدنيا والآخرة. تلك حقيقة لا ينكرها إلا مكابر يجهل حقيقة الإسلام، أو متعصب أعمى التعصب -ضد الإسلام- بصره وبصيرته (٨).

هذا، ومن المعلوم أن بناء دولة الإسلام حجة قائمة بذاتها على الذين يزعمون أن الدين علاقة بين العبد وربه، وأنه مقصور على المساجد والكنائس والصوامع لأنه لو كان الدين كذلك ما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم، ولارتضى البقاء في مكة، واكتفى أن يطلب من المشركين أن يتركوه وما يعبد، وأن يتركهم وما يعبدون، ولعلهم كانوا يرتضون بذلك، وخصوصا أنهم كانوا يعلمون فيه الأخلاق الفاضلة والصدق وشرف المحتد، والنسب الرفيع.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كانت رسالته أبعد من ذلك أثرا، وأعم من ذلك عملا، وإنا نقول مقالة الذين يقولون: الدين علاقة بين العبد وربه، ولكنا نعمم العلاقة بين العبد وربه، فنجعلها عامة شاملة، وليست خاصة، بالصلاة والصوم، إنما علاقة العبد بربه تقتضي الرحمة بعباده، والعدل بينهم أيا كان جنسهم، وأيا كان لونهم (٩).

وإن كل الأعمال التي يبتغي بها المسلم وجه الله تعالى -كإقامة العدل والرفق بالناس وإزاحة الظلم عنهم والقضاء على الترف والتبذير وتنظيم شؤونهم...- وفيها الخير والنفع للجماعة فهي عبادة.

وعلى ضوء ما سبق فلا يمكن أن نفصل بين الدين وباقي لوازمه من إقامة الدولة الإسلامية ومطالب الشريعة الإسلامية من عدل وشورى ووحدة الأمة وغير ذلك.

ومن ثم فإن بناء المجتمع الإسلامي مباشرة بعد وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة(١٠) فيه الكثير من الدروس؛ فلابد للدعوة من كيان يحميها ويذود عنها، ويخدمها، حتى تؤتي أكلها، وتحقق أهدافها وغاياتها...

لنتحدث بتفصيل عن تلك الدعائم الكبرى التي بُني على ذلك الكيان الإسلامي الجديد وفق سنة التدرج:

أ- بناء المسجد:

بناء مسجد المدينة مركز التجمع والتآلف هو أول خطوة قام بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تأسيسه مسجد قباء وهو أول مسجد أسس على التقوى(١١)، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته صلى الله عليه وسلم، فاشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم في بنائه بنفسه صلوات ربي وسلامه عليه.

ومن بيت الله المسجد تنطلق الفضائل الحميدة، وتتوحد الجهود وترفع الهمم وتشحذ الذمم. قبلة واحدة، وصف واحد، وقرآن واحد، ورسول واحد، وإرادة متعاونة على الخير والبر، ومسؤولية مشتركة. خمس صلوات تجمع الأرواح والأشباح خطبة جمعة، ونظام يهتم بمصير الأمة كلها، وسريان دعوة الإسلام من الأقرب إلى الأقرب.

في المسجد تعقد ألوية القتال ورياته، ومن روحانيته يكتسب المسلم قوة وعزما ومضيا في الطريق. ذلك، علاوة على أن التنظيم الإداري والسياسي في الدولة الإسلامية بدأ عقب وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة؛ حيث بنى مسجده الشريف. ولم تقتصر وظيفة المسجد على كونه مكانا لأداء الصلاة فحسب، بل كان المسجد: مجمعا للشورى، ومقرا للقيادة السياسية، ونزلا لاستقبال وفود القبائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحكمة للقضاء بين المتخاصمين بما أنزل الله عز وجل، ومركزا للإنعاش الاقتصادي (١٢).

ومن المسجد كانت تخرج كتائب الجهاد، والرسائل إلى الملوك والأمراء، وتحل مشاكل المجتمع، وتعقد الألوية والرايات، وباختصار شديد ففي هذا المسجد اتخذت أعظم القرارات التي غيرت وجه التاريخ، وبدلت مصائر العالم، ومنه خرجت شعلة النور التي أضاءت جنبات الأرض، فلا غرو إذن إذا اعتبرت بناء مسجد المدينة من أهم ركائز الدولة الإسلامية (١٣).

ب-(الاخاء بين المهاجرين والأنصار):

لقد جاء الإسلام بمبادئ راقية جعلت بين المسلمين روحا من التعاطف والمودة والتعاون بصفتهم كيانا واحدا، وجماعة واحدة، في مواجهة الوثنية ودعوة الناس إلى دين الرحمة والمحبة.

قال مؤرخ السيرة الإمام محمد بن إسحاق رحمه الله:"وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: تآخوا في الله أخوين أخوين"(١٤).

تلك الأخوة لم تكن لفظة تلوكها الألسن بل جعلها النبي صلى الله عليه وسلم أخوة حقة وعقدا نافذا، أخوة عملية ترتبط فيها الدماء والأموال، وتمتزج المواساة والمؤانسة بالمحبة والأخوة الصادقة.

والإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة، فحيث يشيع الجهل والنقص والجبن والبخل والجشع لا يمكن أن يصح إخاء، أو تترعرع محبة، ولولا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جبلوا على شمائل نقية، واجتمعوا على مبادئ رضية، ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله (١٥).

فالغاية السامية التي اجتمعوا عليها وظلال المحبة التي تفيأوا ظلالها نميا فيهم خلال الفضل وخصال الكرم والوفاء، فلم تتسرب إليهم الرذائل ولا ضن النفوس وشحها.

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إنسانا كاملا، تجمع فيه ما تفرق في عالم الإنسان كله من أمجاد ومواهب وخيرات، فكان صورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها بشر، فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه، وداروا في فلكه، رجالا يحيون بالنجدة والوفاء والسخاء.

إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده، ولا يتكلف استخراجه بالآلات والأثقال، والأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم، وإنما هي أثر تخلص الناس من نوازع الأثر والشح والضعة. وقد تبودلت الأخوة بين المسلمين الأولين، لأنهم ارتقوا -بالإسلام- في نواحي حياتهم كلها، فكانوا عباد الله إخوانا، ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض (١٦).

يقول الله جل في علاه: (هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(سورة الأنفال: ٦٢-٦٣)، ويقول جلت عظمته: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) (سورة الفتح:٢٩).

لقد امتاز الأنصار رضي الله عنهم بالحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين المستضعفين، وبالبذل والإيثار والمحبة والصفاء، كما امتاز المهاجرون بالتقدير الكامل لهذه الحفاوة وقدروها حق قدرها، فلم يستغلوها ولم ينالوا منها إلا بقدر ما يقيم أودهم.

وحقا فقد كانت هذه المؤاخاة حكمة فذة، وسياسة حكيمة، وحلا رشيدا لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون، والتي أشرنا إليها(١٧). لقد بلغت المحبة بين المهاجرين والأنصار إلى أقصى درجاتها فتقاسموا المال والعمل، ومدح الله عز وجل الأنصار بأنهم (يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(سورة الحشر: من الآية٩).

هذه المحبة لم تكن تائهة في فيافي الدنيا وقفارها وأودية الغفلة ومفاوزها وإنما كانت اللحمة الجامعة لأعضاء المجتمع المسلم تزوده بطاقة هائلة تخلع الجبال من أماكنها.

ت- معاهدة المدينة:

بعدما قام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلمبعقد هذه المؤاخاة بين المؤمنين قام بعقد معاهدة (وثيقة) أزاح بها ما كان بينهم من نُعرات في الجاهلية، وما كانوا عليه من أحقاد وحمية الجاهلية، واستطاع بفضلها إيجاد مجتمع إسلامي موحد. وهذا نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، (...) وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا (١٨) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل(١٩)، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (٢٠) ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين؛ وإن أيديهم عليه جميعهم، ولو كان ولد أحدهم؛ ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم؛ وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا. (...) وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه؛ وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن؛ (...)، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدثا ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل؛ وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، (...) لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (٢١) إلا نفسه وأهل بيته، (...) وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمدصلى الله عليه وسلم، ولا ينحجز على ثأر جرح، (...) وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، (...) وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، (...) وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره؛ وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم؛ وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم»(٢٢).

فالصحيفة أو الوثيقة تم بموجبها تنظيم العلاقات في هذا المجتمع الإسلامي الجديد سواء بين مكوناته أو بين من انضوى تحته وخاصة من كان بالمدينة من اليهود.

لقد وضعت الصحيفة المبادئ الأساسة لهذا المجتمع؛ باعتبار المسلمين أمة واحدة، بعضهم أولياء بعض، يتعاونون بينهم ويتحابون ويتراحمون، واضعين النُعرات القبلية وحمية الجاهلية تحت أقدامهم، لا فرق بين أسود وأبيض ولا بين عربي وعجمي إلا بالتقوى.

كما بينت الصحيفة حقيقة الحرية معرضة عن التعصب... حتى ولو مع اليهود الذين أعطت لهم حقوقهم كاملة، كحق الجوار ما التزموا ببنود الصحيفة. إن الصحيفة في عباراتها الواضحة ونصوصها العادلة تناولت المعاهدة على نصرة المظلوم، وحماية الجار، ورعاية الحقوق الخاصة والعامة... ووافق يهود المدينة على نصوصها فيما يتعلق بعلاقة المسلمين مع غيرهم، خاصة في الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدوا، والخروج من المدينة لمن يبتغي تركها، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها... لكن هل كانت الأمة الملعونة في القرآن من اليهود صادقة في اتفاقها مع المسلمين على هذا العهد؟! هذا سؤال تجيب عنه غزوة بني قينقاع(٢٣) وقريظة، وإجلاء يهود بني النضير وطرد يهود خيبر.

إن النبي صلى الله عليه وسلم مد يده إلى أولئك اليهود مصافحا، وتحمل من الأذى ما لا تستطيع الجبال الشم أن تتحمله، لكنه كان مسامحا، لكن لما أجمعوا على التنكيل والدس والمكر والقضاء على دين الإسلام حصدتهم سنة الله التي لا تحابي أحدا، وهذا ما سنقص أخباره في الفصول اللاحقة من هذه الأطروحة إن شاء الله. هذا، ومن المعلوم أن تلك الصحيفة بينت لنا القمة التي وصل إليها المجتمع الإسلامي في السياسة والاجتماع، حيث ضم طوائف مختلفة جمعها الإسلام، وهذا لم تصل إليه المجتمعات التي تعتبر نفسها اليوم في أعلى هرم الحضارة والازدهار.

ث- تشكيل الجيش الإسلامي:

كان الصحابة جلهم قد مارس القتال في الجاهلية وأتقن حمل السلاح واستخدامه، ويتضح هذا جليا في قول الأنصار لما بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم: فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر (٢٤)، فلما نزلت الآيات التي تأذن لهم بالقتال قام النبي صلى الله عليه وسلم بتنمية هذه القدرات وتدريبها حتى تتصدى لكل من يقف في وجه الدعوة الإسلامية، أو يعتدي على دار الإسلام، فكان تشكيل الجيش الإسلامي الذي تم توجيهه على أسلوبين موازيين: التوجيه المعنوي، والتدريب العملي.

فالتوجيه المعنوي: بترغيبهم في الجهاد، ورفع هممهم لنيل الدرجات العلا في مقعد الصدق عند الله تعالى التي أعدها للمجاهدين في سبيله. أما فيما يتعلق بالتدريب العملي فيدخل فيه إتقان استعمال أنواع الأسلحة، كالرماح والسيوف والمنجنيق ومناورة ظهور الخيل، وتعلم القتال في البر والبحر... كما اعتمد في هذا الأسلوب كل طاقات المجتمع المسلم القادرة على البذل نساء ورجالا شبابا وشيوخا... بهذه الإجراءات الأربع وضع القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم القواعد الأولى لدولة الإسلام في المدينة، وأخذت التشريعات المنبثقة عن هذين المصدرين تنمو وتتسع يوما بعد يوم، لا بطرائق نظرية تجريدية منفصلة عن الحياة والواقع وإنما وفق نفس الأسلوب الذي كانت الآيات المكية تتنزل فيه لكي تبني العقيدة في أذهان ونفوس الإنسان والجماعة المسلمة، وهو أسلوب يرتبط ارتباطا عضويا حيويا بالواقع الحركي والتجربة الحية المعاشة، ومن ثم تجيء معطياته أشد التصاقا بحركة المسلمين ونمو دولتهم، وأكثر التحاما بتجربتهم المحسوسة وواقعهم المعيش، وأعمق فهما وإدراكا لمتطلباتها وأبعادها القانونية والسلوكية، نظرا لمواكبتها لمشاكلهم وتجاربهم اليومية ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم (٢٥).

ويلاحظ مما تقدم الأسس المتينة التي قام عليها مجتمع الإسلام الأول. كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا ونبيا ينزل عليه الوحي من لدن حكيم خبير، وفي نفس الوقت كان قائدا مجاهدا ومشرفا على إدارة شؤون المجتمع الإسلامي الجديد، وعلى هديه ومنهاجه النبوي سار خلفاؤه من بعده في تدبير شؤون مجتمع الإسلام ودولته.

بهذه الحكمة وبهذه الحذاقة أرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم قواعد المجتمع الجديد على هدي سنن الله الاجتماعية وفي ضوئها؛ لذلك كانت صورة ذلك المجتمع الجديد ناصعة البياض، تركت بصماتها على صفحات التاريخ الإسلامي.

تلك إذن، هي الصورة الظاهرة بيانا وآثارا للمعاني التي كان يتمتع بها أولئك الأماجد

بفضل صحبة النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يتعهدهم بالتعليم والتربية، وتزكية النفوس، والحض على مكارم الأخلاق، والآداب الإسلامية والمحبة والمودة والأخوة، والتعاون على البر والتقوى.

*****

هوامش:

(١) منهج النبي صلى الله عليه سلم في الدعوة، محمد أمحزون، ص٥١.
(٢) خاتم النبيين صلى الله عليه سلم، محمد أبو زهرة، ٦١٦/١.
(٣) يمكن أن ندرج ما كانت تخطط له قريش في الأسباب الجانبية للهجرة إلى المدينة.
(٤) صحيح الإمام البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به النبي صلى الله عليه سلم من الوحي الرؤيا الصالحة، ح٦٩٨٢.
(٥) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟ ح٢٤٧٩.
(٦) فقه السيرة للغزالي، ص١٦٣.
(٧) خاتم النبيين صلى الله عليه سلم، ٦٤٥/٢.
(٨) بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي قراءة ورؤية جديدة، عبد الشافي محمد عبد اللطيف، ص١٦٤.
(٩) خاتم النبيين صلى الله عليه سلم، ٦٤٧/٢.
(١٠) كان وصوله صلى الله عليه سلم إلى المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول. عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، ٣١١/١.
(١١) مسجد قباء: هو أول مسجد صلى النبي صلى الله عليه سلم فيه بأصحابه جماعة ظهرا، وأول مسجد بني لجماعة المسليمن عامة. (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) (التوبة: من الآية١٠٨) فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء هذا هو ظاهر الآية. فتح الباري، ٢٨٠/٧.
(١٢) منهج النبي صلى الله عليه سلم في الدعوة، ص٣٠٨، باختصار.
(١٣) بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، ص١٦٧.
(١٤) سيرة ابن هشام، ٣٧١/٢. أنساب الأشراف، ٢٧٠/١. البداية والنهاية، لابن كثير، ٢٣٣/٢. الروض الأنف، للسهيلي، ٣٥٠/٢.
(١٥) فقه السيرة للغزالي، ص١٩٢-١٩٤.
(١٦) فقه السيرة للغزالي، ص١٩٢-١٩٤.
(١٧) الرحيق المختوم، للمباركفوري، ص١٦٧. نبأ عظيم إلى جميع البشرية وإنك لعلى خلق عظيم؛ الرسول محمد صلى الله عليه سلم، إعداد وإشراف: صفي الرحمن المباركفوري، شارك في إعداده نخبة من العلماء والباحثين، شركة كندة للإعلام والنشر، القاهرة، ط١٤٢٧/١هـ، ١٤٤/١.
(١٨) قال ابن هشام: المفرح المثقل بالدين والكثير العيال.
قال الشاعر: إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة * وتحمل أخرى أفرحتك الودائع. الروض الأنف، ٣٤٨/٢.
(١٩) عقل: العقل وهو الدية. الروض الأنف، ٣٤٨/٢.

(٢٠) دَسِيْعَةَ ظُلْمٍ: أي دَفْعاً بِظُلْم. غريب الحديث، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حمادي بن أحمد بن جعفر، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١٩٨٥/١، كتاب الدال، باب الدال مع السين. ٣٣٦/١.
(٢١) أوتغه: أهلكه، ووتغ وتغاً: هلك.أساس البلاغة، حرف الواو، مادة: وتغ، ص٨٨٩.
(٢٢) سيرة ابن هشام، ٣٦٨/٢-٣٧٠.
(٢٣) قينقاع: اسم لشعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة، أضيف إليهم سوق كانت بها، ويقال سوق بني قينقاع وهم من موالي الخزرج وحلفاء عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي ابن سلول، وكان عددهم قليلا وصناعتهم الصياغة وهم أغنى سكان المدينة، وكانت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة عداوة قديمة في الجاهلية سببها اشتراكهم مع الخزرج يوم بعاث. محمد رسول الله صلى الله عليه سلم ، محمد رضا، ص٢٠٧.
(٢٤) سيرة ابن هشام، ٣٢٠/٢.
(٢٥) دراسة في السيرة، ص ١٣٥.